حضور السيرة النبوية لدى علماء شنقيط في الدرس والتأليف "رصد وتحليل"

د. الشيخ التجاني أحمدي
جامعة انواكشوط

الملخص:

هذا المقال يعرف بما لدى علماء شنقيط (موريطانيا اليوم) من حضور السيرة النبوية في تواليفهم، ودروسهم، ويتضح ذلك جليا في وفرة التأليف وكثرته، وفي اختلاف غاياته ومقاصديه، فجمعوا الشتات، وشرحوا المختصر، ونظموا للحفظ، ونقحوا وهذبوا، وكل ذلك ترجمة لحب نبيهمﷺ وإتقان علمهم.

الكلمات المفتاحية: السيرة، المؤلفات، النظم، النثر، الدرس.

Summary:

This article defines what the scholars of Chinguetti (Mauritania today) have about the presence of the Prophet's biography in their compilations and lessons, and this is evident in the abundance and abundance of authorship, and in its different aims and purposes, so they gathered the diaspora, explained the summary, organized for preservation, revised and refined, and all of this is a translation of the love of their Prophet and mastering their knowledge.

Keywords: biography, literature, systems, prose, lesson.

مقدمة:

الحمد لله الذي أطلع في سماء السيرة بدرا لذوي الألباب، والصلاة والسلام على المختار من أشرف سلالات عمود الأنساب، وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجه إلى يوم المآب، نسأل الله أن يوفقنا في كل قول وعمل للإصابة، وأن يفيض علينا من جنى كل مستطاب، لنستوعب ما أسهم به الشناقطة كامل الاستيعاب، ونستمسك بما عندهم من هديه –صلى الله عليه وسلم– بأوثق العرى، ونزين بأبهى سموط الذهب والحلة السيرا.

وبعد:

فإن الشناقطة أدلو بدلوهم في جميع العلوم، ولم يسلم فن من الفنون وخاصة العلوم الشرعية من إسهاماتهم، فمؤلفاتهم شاهدة على ذلك ودالة، ولا نحتاج إلى تقديم دليل على ذلك وما يعوزنا، وإلا فكيف نفسر وجود كم هائل من مؤلفاتهم وخاصة في موضوعنا السيرة النبوية التي أحبوها وطوروا أساليب تلقيها، وطرق تدريسها، وأسهبوا في التأليف فيها، فأحاطوا مواضيعها بالشرح والتعليق والتوشيح والتوضيح، ولم يبق مؤلف وصل إليهم إلا وتعرض للاختصار والنظم والإضافة عليه حتى يستوعب ويهضم.

وهنا كان دورهم البارز الذي لمعوا فيه وأشادوا صرحا غاية في النفاسة والحسن، وهدفي هو رصد ما أسهم به علماء شنقيط من مؤلفات في السيرة النبوية أو مؤلفات لغيرهم أقاموا معها علاقة حميمية من شرح واختصار ونظم...و ليس الكلام عن الحصر لتعذره على الجهد الفردي، وللبعد الزماني الفاصل بيننا وبعض تاريخ هذه المؤلفات، كما أن الرصد لا يأتي أكله ولا تجنى ثمراته دون أن يحاط بالدراسة والتدقيق؛ لهذا ارتأيت أن أسلط الضوء على خصائص وتأثير هذه المؤلفات، مع اعترافي بأن أكون مقصرا و أنزل دون المطلوب، لكن رجائي النفع بها و أن تكون نواة لأي عمل ستلقاه هذه الجهود الشنقيطية في المستقبل.

أولا: مظاهر الحركة التأليفية عند الشناقطة في السيرة النبوية

إذا كانت مقاصد المؤلفين على سبعة أقسام لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها، وهي: إما شيء لم يسبق إليه فيخترعه أو: شيء ناقص يتممه أو: شيء مغلق يشرحه، أو: شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه، أو: شيء متفرق يجمعه، أو: شيء مختلط يرتبه، أو: شيء أخطأ فيه مصنفه فيصلحه[1].

فإن الناظر إلى مظاهر التأليف عند الشناقطة سيجدها حاضرة في ذهن المؤلّف الشنقيطي، وبادية في عمله، فكل المؤلفات هي نماذج وأمثلة على هذه الأقسام، فالسبيل سالك إليها، والجهود مسلطة عليها، فهم بذلوا ما بوسعهم، وقدر طاقتهم، من أجل أن يتمكنوا من السير على منوال كبار المؤلفين، وأكثر من ذلك يحاولون بعطاءاتهم أن يتجاوزوهم، وذلك بتنويع طرق تناولها، ومحاولة تقنينها، فنشأت

حركة تأليفية نشطة تناولت كل العلوم تقريبا، وخاصة علم السيرة النبوية، الذي تغذى بجهودهم، ونهض بفضل مثابرتهم، فذاع صيت مصنفاتهم، وانتشر نفعهم، فتركوا لنا مساهمات وإضافات قيمة تنبؤ عن غزارة علمهم، وعلو همتهم، وأنا بصدد إلقاء نظرة على مظاهر هذه الحركة التأليفية وأبعادها المختلفة وخصائصها المتنوعة، والتي أصبحت من مكونات التأليف في هذا القطر حيث سعى علماء هذا القطر الإسهام والإضافة في هذا المجال نظما ونثرا شرحا وتعليقا.

ومظاهر ذلك نجملها في الآتي:

1- التأليفات الشروح والاختصارات

أ- التأليفات:

توجد مؤلفات كثيرة في السيرة النبوية، وهي: مؤلفات بعضها مستوعب شامل، وبعضها مختصر مقل، فالمؤلفات المفردة ليست على وزان واحد، و لا طريق واحد، وإنما هي مختلفة في الأغراض و الأهداف، فبعض الأحيان يكون المؤلّف قصد تهذيب مؤلفه حتى يستفيد منه الطالب والشيخ، وبالتالي تكون هناك ضرورة تعليمية باعثة له على تأليفه، وهذا مثله مؤلف "عمود النسب الشريف"[2] للعالم أحمد البدوي بن محمدا، فهذا المؤلف أصبح بعد تأليفه أهم كتاب دراسي للطلبة الأجاويد في السير والأنساب.

في حين أن المؤلّف قد يقصد ما هو أشمل من ذلك وأعم ألا وهو أن يصبح كتابه مرجعا هاما في مادته؛ ولهذا يبذل جهده ويستفرغ سعته لأجل استيعابه لمعلومات لا يستغني عنها أي مؤلّف، وهذا قليل في بلادنا لقلة المصادر الضرورية لذلك، والطبيعة المجتمعية البدوية، ومع ذلك توجد أمثلة له؛ ولعل أبلغ مثال في هذا المجال كتاب الحلة السيرا.

ب- الشروح:

أسهم الشناقطة في هذا المجال إسهاما وفيرا، وعلما غزيرا، فعرفت أغلب المؤلفات التي وصلت إليهم شروحا وافية وتوضيحات كافية، كما حرص المؤلفون على شرح ما كتبوه، ونثر ما نظموه، زيادة في الحرص على الفهم، ورغبة في التوضيح، وهذا الصنيع غالب ومنتشر في المؤلفات التي اطلعنا عليها، وتوجد عدة شروح قيمة

نورد منها شرحا على نظم الغزوات للبدوي[3] محمدو بن عبد الله القناني الملقب "تب" (ت:1364هـ).

ت- الاختصار:

توسع الشناقطة في هذا المقصد وأولوه عناية كبيرة، فشاع اختصار المؤلفين لكتب كثيرة لا تعد ولا تحصى حتى أصبحت العادة عندهم أن العالم إذا قرأ مؤلفا يختصره إذا كان من المطولات، و مؤلفات السيرة النبوية عرفت هذا الصنيع وتركز هذا الجهد على مؤلفات قيمة ولها وزن تربوي وعلمي، وإن كان الاختصار في مجال السيرة قليل ونادر حسب ما اطلعنا عليه من مؤلفات، لكن لا مانع من وجوده، مع عدم ذيوعه، و محصل القول أن حضوره طفيف، ولذلك ما حصلت إلا على شرح مختصر لقرة الأبصار مع عدم تمكني من معرفة معلومات كافية عن مكان وجوده، وهذا الكتاب هو شرح مختصر على قرة الأبصار مولاي إبراهيم بن مولاي عمار[4].

2- الأنظام والحواشي والتعليقات

أ- الأنظام:

هذا هو وسيلة الشناقطة في تثبيت المعلومات، وتسهيل المستعصيات، وتذليل العقبات لينفذ إلى السامع والقارئ ما أراد من غايات، وهو أيضا وعاء لغوي ينقل العلم والمعرفة، ونتيجة للبداوة والترحال وعدم الاستقرار والذائقة الأدبية العالية والمنتشرة بشكل كبير كان على العالم أن يتجه إلى هذا الأسلوب كيما يحفظ له مراميه ومقاصده، فأقبل المؤلفون عليه ولم يبق شيء إلا ونظموه، فنظموا مسائل متفرقة وجمعوها في أبيات تثبيتا لها في الأذهان، وحفاظا لها من النسيان، والمتتبع لحركة التأليف عند الشناقطة يلحظ هذه الخاصية، ويثبتها، فالنظم له الأولية والأفضلية على النثر، عند عامة العلماء والمتعلمين، ولذلك لم يترك الشناقطة مؤلفا نثريا إلا وعرضوه للنظم مرارا وتكرارا، والأمثلة على ذلك كثيرة: نظم السرايا والبعوث[5] وشرحه غالي بن المختار فال البوصادي (ت:1240هـ) ... والقائمة تغني عن وضع الأمثلة.

ب- الحواشي والتعليقات:

الحواشي أو "التحوشي" كما يقال بالعامية الحسانية أسلوب أكثروا منه، وكتبوا آلاف الحواشي على آلاف الكتب، وقيدوا مسائل هامة وضرورية بالنسبة لهم تكميلا للفائدة، وإيضاحا لما يحتاج للإيضاح، وإتماما لما يحتاج للإتمام، وإذا كان هذا المؤلف منظومة فيسمونه اصطلاحا: احمرارا[6]، وأما إذا كانت الحاشية نثرا فهي التي تسمى اصطلاحا حاشية، وسنضرب ما يكفي من الأمثلة على النوع في القائمة.

أما التعليقات: فنجدهم يكثرون من ذلك وهي شديدة الاختصار عادة وتسمى اصطلاحا بالطرة[7] وهذا الأسلوب يستخدم لكي يعين شيخ المدرسة على تدريس النص الموشح، و تقتصر على تقييد الإشارات إلى كبريات المسائل حتى لا تفلت من ذهن الشيخ، وتكون بمثابة المذكرة المختزلة، وهي كثيرة في مجال السيرة النبوية، ولعل القائمة تعطي أنواعا مختلفة منها.

ثانيا: إسهامات الشناقطة في السيرة النبوية

بذل العلماء الشناقطة جهودا مضنية، وأعمالا متعبة، لأجل الوصول إلى الغرض المطلوب وهو تذليل الصعوبات، وتوسيع المدركات، للملمت شتات الموضوعات، وتوطيد المرتكزات، ليسهل على الطالب استيعاب المعلومات، وهذا ديدنهم مع كل العلوم وتعتبر الإضافة والاستدراك من سماتهم وقاسمهم المشترك، إلا أن السيرة النبوية أخذت قسطا وافرا من هذا الصنيع، وتبوأت مكانا عاليا في نفوس أصحابه، فوطئوا أرضها، وشيدوا نصوصا فارهة، وتعليقات نادرة، وحواشي زاهية، تعبر عن نفسهم الطويل، وعلو كعبهم الراسخ.

وهذه الجهود والإسهامات تعددت طرقها وأساليبها،إلا أنها اتحدت في غاياتها وأهدافها، فجاءت على أشكال كثيرة، وفي مقدمة تلك الأشكال التأليفات والشروح والتعليقات والحواشي، و الأنظام، و الاحمرارات والاختصارات وغير ذلك.

وكل هذه الأشكال والألوان صاغها جهابذة من العلماء وأعمدة من أهل الرسوخ صاغوها بإبداع ومهارة قصدوا وهدفوا لإغناء وإثراء حقل السيرة النبوية الشريفة، بكافة العطاءات والإسهامات، وأنا هنا بصدد رصد لأهم المؤلفات على أن نتبع ذلك بعرض وتحليل لبعضها.

I. رصد لأهم المؤلفات في السيرة النبوية

تم إعداد هذه القائمة من المؤلفات استنادا إلى عدة مصادر ومراجع، منها فهارس المكتبات وكتب التراجم، والرسائل المحققة الجامعية، ولهذا وجدت صعوبة بالغة في اقتفاء آثار بعضها والوقوف على معلومات عن مصيرها، والوقت لم يسعفني في ذلك أيضا لقصر الفترة المعطاة، إضافة لتعذر الإحصاء في هذا المجال، و حاجته لجهد جماعي كبير؛ ولهذا حصرت الموضوع وحشرته في أهم المؤلفات، وهي كالآتي:

1- نظم عمود النسب الشريف[8] أحمد البدوي بن محمدا المجلسي (ت:1208هـ).

2- نظم غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم[9]

3- نظم الشمائل النبوية للترمذي[10] أحمدو بابا بن عبد الله بن حامدتو التندغي (ت:1314هـ).

4- أحمد محمود بن يداده الحسني (ت:1388هـ) طرة على قرة الأبصار[11].

5- شرح لنظم العلامة محمذ فال بن متالي في الأخلاق[12] بداه بن البصيري التندغي (ت:1431هـ).

6- محاسن الإصابة في مدح خير الخلق والصحابة[13] أبو بكر بن احجاب الديماني (ت:1322هـ).

7- مواهب الوهاب في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم والأصحاب[14]

8- مفيد البوادي والأمصار في شرح قرة الأبصار للمطي[15] سيدي محمد بن عبد الرحمن السباعي (ت:1352هـ)

9- إتحاف البنات والبنين في أمهات أمهات المومنين وجدات وجدود النبي الأمين[16].

10- جامع السيرة: شرح ألفية العراقي، وقرة الأبصار، والأنساب والغزوات، للبدوي(17). عبد الله بن ايبيه الديماني (ت:1328هـ).

11- شرح على عمود النسب للبدوي[18].

12- نظم السرايا والبعوث[19] وشرحه غالي بن المختار فال البوصادي (ت:1240هـ).

13- شرح على نظم الغزوات للبدوي[20] محمدو بن عبد الله القناني الملقب "تب" (ت:1364هـ).

14- شرح على الغزوات[21] محمدن بن محمد النابغة المعروف ب"الدين" (ت:1382هـ).

15- بلغة المحتاج من سيرة المخصوص بالمعراج[22] وهو مطبوع بمكتبة محمد يحي محمدن بن عبد الصمد بن عبد الملك الآبيري (ت: 1382هـ).

16- كتاب الصحابيات راويات الحديث ومروياتهن[23].

17- المواهب الأحدية في ذكر الشمائل المحمدية[24].

18- نظم حوادث سنين الهجرة النبوية (الطوارئ)[25] ولعله يسمى مرآة الصفا في أخبار المصطفى2500 بيتا.

19- واضح المذاهب في سيرة المختار خير واهب[26].

20- نظم لباب علم السير في نصر الأنصار لخير مضر[27].

21- نظم سلم النجاة في غزوات سيد الهداة[28] محمد تقي الله بن محمد ببكر (ت:1403هـ).

22- المقاصد السنية في سيرة الشفيع في البرية صلى الله عليه وسلم[29] المختار السالم بن العباس المالكي تلميذ آد.

23- فتح المربي على صلاة ربي لليدالي[30] محمد النابغة بن عمر الغلاوي (ت:1245هـ).

24- أنوار البروق في شرح قصيدة الشيخ أحمد زروق[31].

25- نظم في المعجزات بلغ 1700بيتا أم الخيرات بنت أحمد المختار الجكنية [32].

26- نظم في آل البيت شرحه في مجلد ضخم[33]

27- جليلة الإفادة شرح وسيلة السعادة[34].

28- زيادة على نظم الأخلاق لابن متالي[35].

29- تحفة أهل الاصطفاء في غزوات المصطفى صلى الله عليه وسلم [36].

30- نيل المنى والمستطاب في ذكر أهل الكنى من الأصحاب[37] .

31- المواطن العشر في سيرة سيد البشر[38] أحمد المامون بن محمد الصوفي.

32- الأنوار المحمدية في السيرة النبوية[39].

33- سموط الذهب بشرح عمود النسب[40].

34- مفيد البوادي والأمصار على شرح قرة الأبصار[41] سيد محمد بن عبد الرحمن "اماه" (ت: 1352هـ).

2- عرض وتحليل لبعض هذه المؤلفات:

أ- عرض: المثال الأول: الحلة السيرا في أنساب العرب وسيرة خير الورى لمؤلفه محمد سعيد بن المختار اليدالي[42] أحد رجال التأليف الأوائل في هذا القطر، عرف بتصانيفه الجميلة، وعطاءاته الفريدة، و يعد مؤلفه من أوائل المؤلفات في السيرة النبوية عند الشناقطة. قدمه بمقدمة عرض فيها للأسباب والظروف التي ألف فيها الكتاب كما خاطب فيها الحساد والمعارضين، ثم أتبع ذلك بأهمية معرفة نسبه صلى الله عليه وسلم، الذي كان يعتقد أن معرفته شرط من شروط الاعتقاد.

أما القسم الأول: فتناول فيه نسب العرب العدنانية.

القسم الثاني: تناول فيه نسبة القحطانيين.ثم ختمه بخاتمة.

يقول المؤلّف في بداية كتابه: الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي طابت أرومته، وأفصحت عن كرمه المحتد، إلى أن يقول:" على أني لم أر ماهرا فيه اعتمدت عليه، وأرجع عند المعوصات إليه... فأتيت بهذه العجالة تعجيلا لقرى المستفيد وسميته ب:" الحلة السيرا في أنساب العرب وسيرة خير الورى"[43].

وفي نهاية الكتاب يقول: انتهى ما أردناه من اختصار سيرته صلى الله عليه وسلم والكلام على بعض المهم من أنساب العرب، وختمناه ببعض كلامه صلى الله عليه وسلم في بعض كتبه... والناظر فيه يحسن الخاتمة بجاه سيد العرب والعجم سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم".[44]

المثال الثاني: نظم الأخلاق لمحمذ فال بن متالي[45]

هذا النظم هو تلخيص ونظم لنواحي وجوانب خاصة من أخلاق المصطفى صلى الله عليه وسلم، وشمائله الكريمة ويعرض لخصائصه ومعجزاته التي أيده الله بها، وفيه نبذة مقتضبة عن مولده، ودلائل النبوة، ثم ختمه بلمحة عن هجرته، وتسميته

بنظم الأخلاق من باب تسمية الكل باسم جزئه الأعم لأن الأخلاق لا تشمل جميع أجزاء الكتاب[46]

وقد قسم الكتاب إلى عدة فصول وأبواب ومقدمة

فصل في خلقه صلى الله عليه وسلم، وفصل في أخلاقه صلى الله عليه وسلم، باب في خصائصه، باب المعجزات، فصل في كلام الشجر باب في هجرته.

يقول في المقدمة:

حمدا من قدس نيرات وخص رهصها بمعجزات[47]

ب- تحليل:

حاكت هذه الجهود في الإضافة والاستدراك صنيع ابن مالك_ رحمه الله_ في اختصاره للمجموع في كتابه للتسهيل، ونظمه في الكافية واختصاره لها بالألفية، فهناك تشابه بل تماهي في الصنيعين، إلا أنهم عمموها على جميع العلوم وأصبحت سمتهم وديدنهم، فالتصقت فكرة الاختصار والتوسع في بعض الأحيان في مخيلة المؤلفين الشناقطة ونذكر هنا أهم إضافة عرفتها شنقيط والتي تتمثل في ما يسمى احمرار ولد بون [48] الذي أضاف إلى ما نظمه ابن مالك من التسهيل أضاف إليه بقية ما تركه من هذا الكتاب بنظمه هو وطرزه بطرة[49] قيد فيها أكثر المسائل أهمية وجوهرية مثل الشواهد والقواعد، فمثل ذلك الإسهام إلهاما لبقية المؤلفين لينحوا نحوه ويسلكوا طريقة معممين التجربة والصنيع على جميع العلوم وخاصة علم السيرة النبوية التي أثروها بالمؤلفات المنظومة والمنثورة والتعليقات والحواشي المفيدة[50]، و في سبيل إلقاء نظرة نقدية فاحصة، وفكرة ساطعة على هذه المؤلفات نبرز أهم السمات التي طبعت هذه المؤلفات، على أن نتوسع في الحديث عنها محاولين تقييم نتائجها، النفسية والواقعية على التأليف خاصة وعلى المجتمع بشكل عام، وأبرز هذه السمات:

1- جمال العرض وقوة الأسلوب:

تميز الشناقطة في غالب المؤلفات التي تسنى لنا الاطلاع عليها بجمال العرض وقوة الأسلوب، فهم يعرضون الأقوال والآثار المتنوعة لإثراء مادة الكتاب، وإغناء جوانبها المختلفة، ويمارسون أحيانا الجمع والتلفيق والترتيب، هذا في المؤلفات النثرية

وأما الأنظام عموما فتمتاز ببساطة العبارة مع جزالتها، وسلامة أسلوبها، وقوة شاعريتها في طابع جدي علمي رصين، وبناؤها يكون بناء متكاملا يخلوا من الحشو والمحسنات والإرشادات.. ويمتاز العرض بالوضوح والشمول، هذا في الأعم ولكن توجد بعض الهنات التي يجنح أصحابها في بعض الأحايين مع مقدرتهم الإبداعية، و أساليبهم السهلة المشرقة، وأنظامهم المحكمة، فنجد هؤلاء وقد سقطوا قليلا، وما رسوا الاقتضاب والاختصار المخل، وتمثل ذلك باستعمال الرموز للتنبيه على بعض القصص، ولعل أقرب مثال على ذلك ما جاء في نظم الأخلاق الآنف الذكر يقول الناظم[51]:

والباب و الخوخة والعناق　　والرد بعد ثالث الطلاق
وكخزيمة وكالمجامع　　في رمضان والزبير القانع

ف"الباب" والخوخة" يشير بها إلى الحديث:" سدوا كل خوخة في المسجد إلا خوخة أبي بكر"[52].

وإنما ذكر الباب هنا لأن الخوخة هي الباب الصغير كالنافذة تكون بين بيتين ينصب عليها باب[53]، والحديث دليل على أحقية أبي بكر بالخلافة، وهو معد من فضائله ومناقبه الكريمة.

II. الترجيح:

لا يكتفي العلماء المؤلفون بشرح العبارة وإبراز المعاني، ولكن يتجاوزونه ليستدركوا على المؤلف ويخالفونه في بعض المسائل، وقد يتسبب الاعتراض لكتابة مؤلف مستقل بكامله، فمن الأول ما قاله كراي ولد احمد يوره عند قول الناظم:

بيتا لكل منهم بنيت　　يحفه من الجنان بيت

يقول: وهذا النظم ذكر فيه هذا الولي كل من قيل بحضوره بدرا ولو على قول ضعيف...وربما تركت بعض من ذكر في نظمه لعلمي بالقرائن القطعية أنه ليس منهم ككعب بن مالك السلمي[54].

ومن الثاني: تأليف الزين بن احمد لمؤلفه درر اللاقطين وسبب تأليفه كما يقول هو استشكال هذه المسألة فتطوع ببيانها بكتاب مستقل وقد ذكر المؤلفين الذين

تعرضوا لها ومن بينهم ابن العربي وغيرهم فأفاض فيها كثيرا وتعرض لدلالاتها المختلفة الفقهية والتاريخية... إلى يصل إلى ترجيح زمان وقوعها، بقوله:" الرابعة: حجة الوداع وهي التي ينبغي أن تكون القضية فيها؛ لأن البخاري ذكر أن بعث علي إلى اليمن كان قبل حجة الوداع، وأنه قدم إليها من اليمن وصرح الحلبي أن قدومه فيها هو من بعثه إلى اليمن بعد أن أسلم على يده من أسلم من أهل اليمن، ولم يعش بعدها النبي –صلى الله عليه وسلم– بعد حجة الوداع إلا ما بين وسط ذي الحجة ووسط ربيع الأول، والغرض من كونها في آخر عمره –صلى الله عليه وسلم– ضعف احتمال النسخ[55].

3– آثارها وانعكاساتها على المجتمع الشنقيطي:

عاش المجتمع الشنقيطي في فترة استثنائية فريدة في تنوعها وثرائها، بالعلم والعلماء والتوسع في دراسة العلم الشرعي، فصور لنا الشناقطة أبهى الصور، وأمثل الأمثلة على تميزهم وتفردهم في ذلك العصر، الذي كان يعاني أصحابه من الجهل والضعف في المستويات العلمية كافة، ولم يسلم بلد إسلامي من ذلك حتى أطلق عليه النقاد عصر الضعف، وهو حكم كان عليهم أن يعدلوه بعد اكتشاف الكم الهائل من المؤلفات الأدبية و التاريخية والفقهية في هذا القطر، فصحيح أنها أي شنقيط كانت منعزلة تماما عن العالم، ولم يسمع إلا عن عالم سافر إلى هنا أوهناك، ذاع صيته، وانتشر نفعه، هذا حالهم خارج البلاد سفراء للعلم والمعرفة، تجار مع العلم والمعرفة، وأما حالهم في داخل البلاد فكان أضخم وأكثر مما شاع عنهم خارجه، فمحاضرهم ومؤلفات كانت تمثل الجسر الذي يعبره المتعلمون إلى دوحة العلم، ويرتادوا فضاءه، وأنظامهم وطررهم كانت نبراسا ينير الطريق للمتعلمين، ويستفيد منه كافة طبقات المجتمع وتلهج بها ألسنهم ويترنمون بها حين يريحون وحين يسرحون، وكان من نتائج هذا الجهد إعابة الجهل والإشادة بالعلم، فالأمية عندهم داء لا ينفعه إلا الدواء وهو التغرب للعلم، وفضيحة وذنب لا يغسله إلا التعلم، ونقيصة تزري بمكانة صاحبها وتحط من قدره[56]، و هذا الإشعاع الثقافي شاع وترسخ بفضل المحضرة التي كانت تمثل أكاديمة لإعداد القادة والخيرين من المجتمع، وتوطد سلوك التعلم، وغرس المحبة

للعلم، والسيرة النبوية لها الدور الكبير في طبع هذا التصور وتمكينه من النفوس، وتوطيد دعائمه.

ونتيجة طبيعية لأي حركة تعليمية شرعية أن تهتم بسلوك وسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي يجب على المؤمن محبته واتباعه، ومحبته من الإيمان والإحسان، وهذا ما يفسر العناية الكبيرة والجهد الوفير المبذول في هذا المجال، إلا أن الوعاء الذي استخدم في التأليف كان آلة فعالة في المجتمع الشنقيطي، طالما أحبوها وألفوها، ولا يبغون عنها بدلا، وهذا الوعاء هو النظم، مع أن النثر يستفاد منه إلا أنه لا يبلغ درجة النظم خاصة إذا كان الناظم شاعرا مبدعا، فتلك أمنية الشنقيطي، ومظاهر ذلك تتجلى على عدة مستويات نوجزها في ما يأتي:

المستوى الأول: العلماء انتشر تأثير هذه المؤلفات على كثير من العلماء وتجلى ذلك بتعقبها ومحاولة الاستدراك عليها والملاحظة عليها، والإعجاب ببعضها، حتى أصبح عندنا كما هائلا من الشروح المختصرات والأنظام لكتب دراسية محضرية معروفة، ولم يحدث هذا إلا نتيجة لتأثر هؤلاء العلماء، وأبلغ من هذا اقتفاء أثر بعضهم لصنيع ومنهج من سبقهم، فأصبح هذا التأثر ظاهرة تستحق الدراسة والتأمل، ولا تعوزنا الأدلة والبراهين على ذلك، فيمكن أن نسوق منها مثالا واحدا يغني عن غيره، لذيوعه وشيوعه عند القوم، وهو ما يرويه بعض العلماء أن المجلسي صاحب كتاب عمود النسب اعترى من العالم محمد سعيد اليدالي كتابه الحلة السيرا وبعد فترة جاء ليأخذه فما كان من المجلسي إلا أن أجهش بالبكاء حزنا وندما على مفارقته فتركه له، وقيل بأنه نظم منه عمود النسب، ونظم الغزوات.

المستوى الثاني: المتعلمون أما هؤلاء فنتيجة حتمية أن يتأثر المتعلمون بما يتأثر به العالمون، إلا أن هناك زيادة في التأثر لدى هؤلاء وهو شغفهم بهذه المؤلفات وخاصة الأنظام التي أقبلوا عليها، وأحاطوها بألوان الرعاية بالحفظ والتكرار، و لا يمكن أن يخفى هذا التأثر، فأجاويد الطلبة وعامتهم، تنهل من معين مؤلفاتهم، و تلهج بأنظامهم، وتحفظ تعليقاتهم واستدراكاتهم، وواقع المحضرة اليوم والأمس يشهد على ذلك، فكم من طالب ومتعلم قد حفظ قاعدة أو حكما بفضل نظم ناظم، أو إشارة مستدرك، ولا عجب في ذلك، فالمكتبة عندنا هو ما يحفظ وما يسطر في الصدور.

المستوى الثالث: العامة نقصد هنا غير طلبة العلم، فهؤلاء كانوا يتفاعلون مع جو الإبداع، و يتأثرون بالمتعلمين، فاستظهروا قصص السيرة النبوية منهم، وحفظ البعض منهم أنظاما تشيد ببطولات الصحابة وتكبر صنيعهم، وتصف الهجرة، وأخلاق المصطفى صلى الله عليه وسلم وغير ذلك، وتوسع هذا أكثر مع تناول الأدب الشعبي للسيرة النبوية، ويمكن هنا أن نستشهد لهذا التأثر بما أدركناه من الأمهات القصاصات، والمنظومات التي كان يلهج بها هؤلاء دون أن يروها أو يقرءوها في كتب أو صحف، فتلك غريزة الحفظ القوية لدى مجتمعنا، كان الصغار يستأنسون بأحاديث الأمهات والجدات عن السيرة النبوية وخاصة الغزوات، وتبعا لما ذكرنا ظهرت عوائد كثيرة تمجد المصطفى صلى الله عليه وسلم وصحابته، وانطبع المجتمع على غريزة الحب للنبي وآله وأصحابه، ومن هذه العوائد المدح وهو عبارة عن كلمات منسوجة نسجا قوية تمجد النبي وآله وصحبه، وما زالت موجودة حتى الآن، لها مظاهر احتفالية خاصة وطابع خاص يميزها عن سواها من الاحتفاليات.

كما أن المنهج المحضري كانت السيرة النبوية مادة أساسية من مواده، وحلقة رئيسية من حلقاته، وذلك من خلال تدريس كتب للصغار حتى يتربوا على النهج السوي القويم، ونشير هنا إلى أن السيرة النبوية في السلم الدراسي تأتي متقدمة على كثير من العلوم، ولهذا أصبحت بعض الكتب معروفة مرشحة للقراءة لأي طفل دخل المدرسة أولم يدخلها.

خاتمة:

في غب هذه المقال العلمي أود أن أسجل عظم الدرس المقدم من جهابذة علمائنا وخيرة مؤلفينا، وأبدع أساتذتنا وشيوخنا، فهم حقيقة لم يقصروا رغم قساوة الطبيعة وندرة المؤلفات، والبعد من وسائل المكتبات، فكان تراثهم يعبر عن شموخهم وارتقائهم، وقوة عزائمهم وشرف أهدافهم، فألفوا وشرحوا واختصروا ونظموا وكانوا رياديين في كل هذه المظاهر، واتسمت كتبهم بالقوة والرصانة والنفاسة، فذاع صيتها في البلاد وأحبها العباد، وانتشر نفعها وتأثيرها، وهي كتب مع أنها لم تتجاوز المراجع القديمة، إلا أنها نوعت وتوسعت في تناولها وتقنينها، حتى تتماشى مع حاجة هذه

البلاد العلمية والتعليمية الخاصة، وذلك من خلال عشرات الشروح والأنظام والاختصارات والتعليقات، مما أنشأ حركة تأليفية ضخمة في هذا المجال، أدركنا بعضها وضاع جلها وأكثرها، ولا بد من الإشارة إلى أهم النتائج المتوصل إليها في هذه المساهمة:

أولا: نفاسة المؤلفات الشنقيطية في السيرة النبوية:

لابد لمن قرأ بعض هذه المؤلفات أن يلحظ الجهود الجبارة التي بذلها أصحابها في سبيل تقريب الفهم، وتوسيع المدرك، وحرصهم على أن تكون عباراتهم جامعة مانعة، فباحتكاكي بمختلف أصناف مؤلفاتهم المنظومة والمنثورة المطولة والمختصرة، وخاصة حلة السيرا في نسب العرب وسيرة خير الورى، وعمود النسب وشروح قرة الأبصار، وغيرها، لفت نظري أن هؤلاء قدموا للتراث السيري خدمة جليلة كما فعل محمد سعيد اليدالي في حلة السيرا فهو مؤلف لا يجد القارئ في قراءته عنتا، ولا يلحظ صعوبة، وهذا فعل البدوي في عمود النسب فأسلوبه شعري بامتياز وعباراته رائعة وراقية.

ثانيا: كثرة الأنظام والحواشي

وهي ظاهرة صحية دأب علماء شنقيط على الإكثار منها في كل فن وخاصة السيرة النبوية، مع أن المختصرات قليلة في هذا الفن، إلا أن وجود هذه المظاهر الأخرى له دواعيه وأسبابه منها ما يرجع إلى الحاجة التعليمية، ومنها ما يختص لسبب خاص وهو جنوح أغلب أفراد المجتمع للنظم وتفضيله على سواه لخفة حفظه، كما أن الحواشي كانت مفاتيح لهذه الأنظام أو المؤلفات التابعة لها، ولم يكن الاستغناء عنها ممكنا، لحاجة الناس إليها فهي تشرح العبارات للمؤلفين السابقين، وتزيد أهميتها عندما تشرح المصطلحات القديمة وتعطيها فهما عصريا يقربها للناس ولهذا كانت كثرتها تصب لخدمة هذا الهدف والمعنى.

ثالثا: تأليفات مستقلة في جزئيات من السيرة النبوية

أفرد الشناقطة لبعض الجزئيات مؤلفات مستقلة، كما جمعوا بعض متفرقات السيرة النبوية في أبيات وأنظام، ولعل هذا يشي باهتمامهم الشديد، وولعهم بحب هذا العلم.

ولعل من نتائج هذا المقال أنه توسع في إلقاء نظرة موسعة على جوانب هامة لهذه المؤلفات، وكرس الجهد المستطاع لإيضاح مدى التركيز الذي كان يحظى به هذا العلم عند الشناقطة درسا وتأليفا.

الهوامش:

(1) كشف الظنون لحاجي خليفة، ص: 38.

(2) عمود النسب الشريف ونسب الأنصار وأنساب العرب وأخبارها في أيام الجاهلية والإسلام لمؤلفه أحمد البدوي المجلسي المتوفى سنة:1208هـ. تقديم محمد يحيى بن سيد أحمد الطبعة الثانية 1421هـ المكتب العربي ص 14.

(3) وهو موجود بمكتبة محمد يحي بن سيد أحمد بخط المؤلّف أو صورة من خط المؤلّف.

(4) لم أعثر على ترجمة له ولكن قيل بأنه من شرفاء آقوركيت وهي منطقة قريبة من انواكشوط العاصمة وانه من القرن 13هـ.

(5) وهو محقق بالمعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية انواكشوط موريتانيا، سجل السيرة النبوية، رقم: 7.

(6) الاحمرار في اصطلاح العلماء الشناقطة يعني نظما يعتبر تكميلا وتوشيحا لمنظومة قبله يوضح منها ما يحتاج إلى تبيين ويضيف إليها ما تتطلبه مواضيعها من إتمام، ويسمى "الاحمرار" لأن العادة جرت أن يكتب هذا التوشيح بالمداد الأحمر في خلال المنظومة السابقة التي تكتب بالحبر الأسود ومن أشهر ما عرف عنهم من هذا النوع احمرار العلامة المختار بن بونا الجكني، في توشيح ألفية ابن مالك المشهورة.

(7) هي تعليق شديد الاختصار يعين شيخ المدرسة على تدريس النص الموشح.

(8) وهو منظومة تناهز 1272 مائة بيت، وهي مطبوعة في كتاب صغير.

(9) وهي منظومة تقع في قرابة 452 بيت، وهي مطبوعة في كتاب صغير.

(10) حققه أبن بن المختار بالمعهد العالي بموريتانيا رقم: 1800.

(11) وهو مخطوط بالمعهد العالي بموريتانيا. وهو يقع في 84 صفحة من الحجم المتوسط. سجل السيرة النبوية: و (21) 195.

(12) وهو اختصار لشرح محمد فال بن آبني التمكلاوي المسمى "فاتح الإغلاق بشرح نظم الأخلاق". وقد سمى اختصاره هذا تحفة الحذاق بشرح نظم الأخلاق، وتوجد ب: المعهد العالي بموريتانيا نسختان منه إحداهما تقع في 109 صفحة، رقم: و(15) 263. والأخرى تقع في: 173. رقم: و(51) 79.

(13) وهو نظم يقع في 306 بيتا، محقق ب: المعهد العالي بموريتانيا ينظر سجل السيرة النبوية رقم 1.

(14) وهو نظم يناهز الأربع مائة بيت، توجد منه نسخة جيدة بالمعهد العالي موريتانيا. سجل السيرة النبوية: و(58) 2303.

(15) معجم المؤلفين بولاية اترارزة: ص78.

(16) وهو نظم يزيد قليلا على 800 عدد صفحاته 60 صفحة مكتبة عبد الله بن امين بآمنيكير.

(17) يقع في قرابة 250 صفحة أو يزيد قليلا وهو بخط صغير والورق كبير وهو بخط المؤلف.. يوجد بمكتبة عمر بن محمدن عبد الله بالدوشلي موريتانيا.

(18) يقع في قرابة 300 صفحة من الحجم الكبير بخط المؤلف في نفس المكتبة.

(19) وهو محقق بالمعهد العالي بموريتانيا سجل السيرة النبوية، رقم: 7.

(20) وهو موجود بمكتبة محمد يحي بن سيد أحمد بخط المؤلف أو صورة من خط المؤلف.

(21) وهو موجود في مكتبة محمد يحي بن سيد احمد اترارزة موريتانيا.

(22) وهو محقق بالمعهد العالي بموريتانيا. سجل السيرة النبوية. رقم105.

(23) وهو محقق بالمعهد العالي بموريتانيا سجل السيرة النبوية رقم 2.

(24) في رسالة محمد

(25) وهو محقق بالمعهد العالي بموريتانيا سجل السيرة النبوية. رقم101. وفي المعهد رسالة تحمل الرقم 2609 بعنوان الطوارئ في سيرة حبيب الباري.

(26) وهو منظومة تتناول نسب النبي صلى الله عليه وسلم، ونسب بني هاشم، ويبلغ عدد أبياتها 101 بيتا، وتوجد منه نسخة بزواية الشيخ محمد اليدالي.

(27) 27 – وهو محقق بالمعهد العالي بموريتانيا سجل السيرة النبوية: رقم: 55.

(28) 28 – وهي منظومة طويلة تناهز الألف بيت، وهي محققة بالمعهد العالي بموريتانيا. سجل السيرة النبوية: رقم25.

(29) وهو محقق بالمعهد العالي بموريتانيا. سجل السيرة النبوية: رقم: 42.

(30) وهو مخطوط يقع في 23 صفحة من الحجم المتوسط، توجد منه نسخة بزاوية الشيخ محمد اليدالي.

(31) وتوجد منه نسخة قديمة متآكلة الأطراف وهي كاملة مع ذلك بالمعهد العالي بموريتانيا. ومجموع صفحاته 18 من الحجم المتوسط. سجل السيرة و(23) 661.

(32) عاصر العلامة آب صاحب تفسير :"أضواء البيان" وذهب معه في رحلة الحج، توفي بالمدينة المنورة مقابلة مع أحد أبنائه انواكشوط بتاريخ 12 دجمبر 2010م.

(33) معجم المؤلفين بولاية اترارزة.

(34) وهو تأليف حافل شرح به وسيلة السعادة نظم الشيخ محمد المامي الكبير لأهل بدر، وقد حققه الباحث الموريتاني التاه بن محمدن بن اجمد في إطار رسالته العلمية الدكتوراه بكلية الآداب سايس جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس المغرب السنة الجامعية: 2012–2013م.

(35) وهو محقق على جزئين بالمعهد العالي بموريتانيا. سجل السيرة النبوية. رقم الجزء الأول: 112. ورقم الجزء الثاني: 73.

(36) وهو نظم يقع في 206 من الأبيات مكتبة محمد معروف مكتبة خاصة بموريتانيا.

(37) وهو نظم يقع في 1040 بيتا، مكتبة محمد معروف مكتبة خاصة بموريتانيا.

(38) وهو محقق بالمعهد العالي بموريتانيا سجل السيرة النبوية، رقم: 3.

(39) وهذا التأليف شرح لقرة الأبصار في سيرة المشفع المختار لعبد العزيز اللمطي، وهو محقق مرتان بالمعهد العالي بموريتانيا سجل السيرة النبوية، رقم التحقيق الأول: 5. والثاني: 12.

(40) يقع مجلدات ضخام يقع في قرابة 1000 صفحة مكتبة آل اجمد موريتانيا.

(41) وقد حقق منه الجزء الأول بالمعهد العالي. سجل السيرة النبوية رقم:64.

(42) محمد بن المختار بن محم سعيد بن المختار اليدالي أحد رجال تشمشة الخمسة ويعد من أوائل المؤلفين الشناقطة له مؤلفات عديدة منها الذهب الإبريز في تفسير كتاب الله العزيز، فرائد الفوائد في شرح قواعد العقائد توفي سنة: 1166هـ الوسيط ص 116، ينظر رسالة الطالبة زينب بنت بدو ص:10.

(43) الحلة السيرا في أنساب العرب وسيرة خير الورى الجزء الأول تحقيق الطالبة زينب بنت بدو إشراف د. محمذن ولد المحبوبي السنة الدراسية 2003/2002 رقم الإيداع 1167 ص: 16.

(44) الحلة السيرا في أنساب العرب وسيرة خير الورى الجزء الأخير تحقيق الطالب محمدو ولد أحمد إشراف محمذن ولد المحبوبي السنة الدراسية 2004/2003 رقم الإيداع 1381 ص: 70. المعهد العالي بموريتانيا.

(45) محمذ فال بن متالي(بالذال المعجمة المنونة المكسورة) مصحف محمد فال علامة جليل وصالح نبيل أذعنت لعلمه العلماء وتضلع كثير من الزوايا من معينه توفي 1182هـ له عدة أجوبة ونوازل له اختصار لشرح المواق... الوسيط في تراجم أدباء شنقيط لمؤلفه محمد الأمين الشنقيطي ص: 341ط .

(46) مذكرة نهاية الدراسة نظم الأخلاق لمحمذفال بن متالي تحقيق محمد بن أحمد بيب إشراف عبد الرحمن بن الخليفة السنة الدراسية 1986/1985 رقم الإيداع 493 المعهد العالي بموريتانيا.

(47) المرجع السابق ص: 22.

(48) وهو كتاب مطبوع للنحوي المختار بن بون، ينظر بلاد شنقيط المنارة الرباط، تأليف الخليل النحوي، طبع المنظمة العربية للتربية والثقافة ص: 306.

(49) وهي مطبوعة ينظر نفس المصدر ص:306.

(50) هذه الفكرة التي انطلقت منها مستخلصة من تتبع واستقراء لمجموعة من المؤلفات الشنقيطية في أصناف عدة من العلوم، ولم أجد من نص عليها، لكن لعلها تكون واضحة وبادية، أو لا حاجة للإشارة إليها، على أن التحليل يلزمني الخروج بهذه الفكرة والإفصاح عنها، وهي من عندي.

(51) المرجع السابق ص: 18.

(52) صحيح البخاري (8) كتاب الصلاة، (79) باب الخوخة والممر في المسجد ح447، مسلم (44) كتاب: فضائل الصحابة، (1) باب فضائل أبي بكر الصديق، ح2382.

(53) ينظر لسان العرب لابن منظور مادة: خوخ، 3 | 14 ط1، دار صادر بيروت.

(54) ما شرحه كراي بن أحمد يوره من نظمه على أهل بدر تحقيق محمد باب بن كراي السنة الجامعية 2004/2003 رقم الإيداع: 1275 المعهد العالي بموريتانيا.

(55) جليلة الإفادة في شرح وسيلة السعادة للزين ابن اجمد مخطوط ص: 8. مكتبة أهل ابوه انواكشوط موريتانيا.

(56) بلاد شنقيط المنارة والرباط ص:260.